

الفصل النخاس

الخير والشر

ما معنى الخير والشر؟ متى أسمى العمل خيرا ومتى أسمىه شرا؟ ما هو الخير الأخير الذى نقصد إليه من أعمالنا؟ وبعبارة أخرى ما غاية الغايات التى ينبغى أن أسعى للوصول إليها؟ — إننا نقصد فى حياتنا الى أشياء كثيرة من مال أو جاه أو صحة أو منصب أو نحو ذلك فلم نقصد إليها؟ وهل هى مقصودة لنفسها أو لشيء وراءها يُعَدُّ هو الأساس؟ وإذا كان كذلك فما هو هذا الأساس الذى نسميه الخير الأخير أو غاية الغايات؟ هذا هو موضوع بحثنا فى هذا الفصل .

وإنه لمن السهل استنتاج الأجوبة على هذه الأسئلة مما قرأناه فى الفصل السابق، فإن كل مذهب من المذاهب الثلاثة الماضية يجيب بأجوبة تخالف ما يجيب به الآخر، تبعا لمسلكهم الذى سلكوه فى مقياس الخير والشر .

فالمذهبان الأولان « مذهب السعادة الشخصية ومذهب السعادة العامة » قالا : ليس هناك عمل خير في ذاته ، ولا شر في ذاته ، وإنما العمل يُحْكَم عليه بأنه خير أو شر تبعاً لنتائجه ، فالعمل الذي تَرَجَّحُ لذائذه آلامه خير ، والذي ترجح آلامه لذائذه شر ، والذي تتساوى لذائذه وآلامه لا خير ولا شر ، فإذا سئلت عن عمل أخير هو أم شر حسبت نتائجه لأصدر حكماً عليه ، والعمل في ذاته ليس خيراً ولا شراً ، بل العمل الواحد قد يحكم عليه في بعض الأحيان بأنه خير ، ويحكم عليه في أحيان أخرى بأنه شر ، وذلك لما يحيط به من ظروف تجعله ينتج لذائذ أكثر من الآلام أحياناً ، وآلاماً أكثر من اللذائذ أحياناً ، ويجب على الإنسان إذا خيّر بين أعمال أن يختار خيرها ، وخير الأعمال ما أنتج أكبر لذة وأقل ألم .

يتفق المذهبان الأولان في هذا القول وإن اختلفا في التفصيل ، فالأول يرى أنه عند الحكم بالخير والشر لا ننظر إلا إلى العامل ، والثاني ينظر إلى العالم أجمع كما سبق تفصيله .

والغاية الأخيرة التي يقصد إليها المذهبان هي « السعادة » فكل عمل قُرب منها كان خيراً ، وكل عمل أبعد عنها كان شراً ،

والمذهب الأول يقصد إلى سعادة العامل ، ويعتد ذلك هو الغاية الأخيرة للحياة ، وهو مذهب ظاهر البطلان كما قدمنا .

أما مذهب السعادة العامة فيرى أن الغاية الأخيرة التي ينبغي أن يسعى إليها الانسان هي تحقيق السعادة للناس ، وأن العمل خير كلما قُرب من إسعاد الناس ، وشر كلما أبعد من ذلك ، وأن الانسان الخير هو من راض نفسه على العمل لخير الناس ، وربط منفعته الشخصية بمنفعتهم ، وتألم من الأذى يصيبهم كما يتألم من الأذى يصيب نفسه ، ويجب لهم من الخير ما يحب لنفسه .

أما مذهب « اللقانة » فيرى أن هناك أشياء هي خير في ذاتها ، وهي التي اصطالحنا على تسميتها فضائل ، من صدق وعدل وشجاعة وعفة ونحوها ، وهناك أشياء شر في ذاتها وهي التي تسمى الرذائل من ظلم وكذب وجبن ونحوها ، واسنأ نحكم على هذه الأعمال بأنها خير أو شر تبعاً لتأثيرها ، ولا في بعض الأحوال دون بعض ، وإنما نحكم عليها حكماً عاماً مطلقاً مهما كانت نتائجها ، فالصدق والعدل والعفة خير دائماً سواء أنتجت لذة أو ألم ، والكذب والظلم والشر شر دائماً سواء أنتجت لذة أو ألم ، والانسان الخير من وجه إرادته للعمل حسب ما تهديه نفسه للخير ، والغاية الأخيرة التي ينبغي أن يسعى إليها هي أن يكون فاضلاً ، يتبع الفضيلة

حيث كانت، ويُكَلِّم نفسه بالعمل على وفقها ولو تحمل في سبيل ذلك الآلام الجسام — وليست الغاية هي السعادة كما يقول المذهبان السابقان، ولكن الغاية أداء الواجب، والتمسك بالفضيلة، وإن ضحى لذلك باللذة والسعادة بل وبالحياة إذا دعت الحال، وليس للسعادة قيمة إذا قيسَت بالواجب، واللائق بشرف الإنسان أن يسمع لوصي الضمير من غير أن ينتظر حساب اللذائذ والآلام، وأن يفعل الواجب للواجب لا لشيء وراءه.